الفصل الأول

التربية

لست أدري في أي كتاب من كتب الأوروبيين قرأت مرة لبعضهم عبارة جاء فيها: "أن الملوك ذاهبون من الدنيا، وسوف يخلو العالم منهم". وقد تأملت في هذه العبارة، وقلبت هذا القول وأنا ناظر إلى أحوال الشعوب متفحص سير الأمم، فرأيت قول ذلك القائل أكثر انطباقا علي الشعوب منه علي الملوك.

ولا مراء في أنه إذا استمرت الأمم علي ما هي عليه الآن من إنكار المبادئ الأدبية والتعاليم الدينية، وبالتالي من فقدان التربية الصحيحة، فإنها ذاهبة دون شك لتخلي الأرض لأمم أخري تقوم في الأرض مقامها، وتوطد فيها أقدامها.

ولرب سائل يسأل ما هي التربية فأقول: أن التربية أمر شريف سام، بل هي رأس الشرف وغاية السمو؛ لأنها تفعل في الإنسان فعل الحرث، وتقليب الأرض، وريها وتسميدها في البستان. وكما أن البستان لا تبدو خضرته، ولا يحيا نبته إلا إذا تناوبته يد البستاني، فهكذا الإنسان الحجم وضعه بذلك العنوان فعرفها بأنها: "إن لم تكن إيجاد أخلاق الإنسان واستخراجها من العدم، فإنها في الحقيقة إيقاظ تلك الأخلاق النائمة من سباتها، وإطلاقها من عقالها، بل هي بث الحياة والحركة وقوة العمل في الوجود الإنساني الغير التام". وبمعني أوضح: أن أخلاق الإنسان لا تتم وتصبح قادرة علي عمل من الأعمال التي تطلب من الرجال إلا بالتربية وكفي التربية بذلك تعريفا وتشريفا. وعلي هذا البناء تكون

التربية العقلية، والأدبية، والدينية اشرف أعمال الإنسان وأسماها غاية وأنبلها مقصدًا.

وإذا سأل سائل عن ماهية التربية التي نشير إليها قلنا: أنها تنحصر في أربعة أوجه وهي المادي، والعقلي، والأدبي، والديني.

فالمادي تقوم به الأجسام وتقوي الأبدان. والعقلي يصدر عنه تقدم العلوم، والصنائع، والفنون الجميلة. والأدبي يكمل كل خلق، ويعلم السلوك ومعرفة المعيشة. والديني يرفع النفوس، ويهذبها، ويعلمها ما لها وما عليها.

بقي في الكلام علي التربية أن شريعتها هي شريعة العمل؛ لأنه ليس علي هذه الأرض خلوق وجد لكي لا يعمل عملا. وأنظر إلى أحقر المخلوقات، وأصغرها، وأضعفها، ترَها دائبة في العمل، كل منها بما تعينه عليه قواه وما تقضي به عليه حاجاته الطبيعية. فإذا كان ذلك شأن أحقر المخلوقات فما ظنك بالإنسان وهو دون المخلوقات قد أوتي الذكاء، والفطنة، وحرية الفعل، وقوة العمل. فلا مشاحة إذا في أن كل كائن هذه صفته إنما وجد ليعمل، لأن في العمل الحياة، وفي البطالة الموت والفناء.

وإذ قد ثبت ذلك وتقرر في الأذهان، فقد أصبح من قبيل تحصيل الحاصل أن نقول أن أول فروض المربي ورأس واجبات المعلم أن يوجها جل عنايتها إلى إدخال الولد في طريقي العمل، والاجتهاد، والإقدام الشخصي ليحملاه (كما قال السيد ديبانلو) علي "العمل أو التمرن البدني" الذي يقوي الأعصاب، والعضلات، ويساعد علي نمو الجسم وصلابته، وعلي "العمل العقلي" الذي يوجد عنده قوة الحاكمة، والذوق، والرصانة، والذاكرة، والتصور، ثم علي "عمل القلب، والإرادة، والضمير" الذي يتم الأخلاق، ويوجد الأميال العفيفة، ويقود الخطى في سبيل النزاهة والفضيلة.